المعرفة الدينية ومسالك الوصول إليها عند أبي حامد الغزالي

عبد الغني عكاك :أستاذ محاضر أ
كليّة العلوم الإسلامية- جامعة الجزائر 1

ملخّص

يعتمد الإنسان في تسيير حياته والتّواصل مع خالقه على المعرفة العلميّة، إذ لا يعبد الله بجهل، ولا تسير الحياة بلا نظام، لذلك كان البحث في طرق المعرفة ضرورة علميّة، ومن الذين أسهموا في صياغة نظرية في المعرفة الإمام أبو حامد الغزالي، حيث عرض آراء ذات قيمة علمية، بين فيها أنّ سعادة الإنسان تكمن في الوصول إلى أعلى المعارف على الإطلاق، وهي معرفة الله، الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، ليقوم بدوره في الحياة، وهنا يعطينا نظريّة في طرق الوصول إلى الحقيقة، من خلال الاعتماد على النّظر والاستدلال، كما يرسم لنا مسارات العلم، من بداية تكوينه إلى نهاية مطافه، ليخلص في الأخير إلى نتيجة مفادها: أنّ العلم الحقيقي لا يتمثّل في معرفة الفنون والتّمكّن من الصّناعات فقط، إنّما يمكن في التّعرّف على النّفس وتهذبها، والأخذ بناصية العلوم لصقلها، كما أنّه قد يكون وسيلة ترفع صاحبها إلى أعلى المستويات والمراتب، وإما أن تنزل به إلى أدنى دركات الظّلال والمفاسد.

الكلمات المفتاحية: المعرفة، العلم، العلم اللّدني، الحقيقة، المجاهدة، اليقين، العبادة، الشك، التّقليد، النّظر، التّصوّف، الفلسفة، علم الكلام، الباطنية، الاعتقاد.

Abstract

The conduct of the human's life and communication with his Creator depends on scientific knowledge; he doesn't worship Allah ignorantly; nor conducting life without a system therefore seeking knowledge was a scientific necessity; Abu Hamid Al Ghazali one of those who contributed to the theory of knowledge where he pointed out views with scientific value which shows that human's joy lies in reaching the higher top of knowledge ever; which is knowing Allah; who taught the human what he did not know so he could be an effective individual in this life and here is Al-Ghazali who gives us ways to reach the truth throughout drawing science paths; from its beginning to the end; finally he concluded that: true science isnt only knowing the arts and languages and mastery of industries ; but true science lies in recognizing the soul and its disipline ; and to take knowledge so it could be refined. Us it could be a way that brings it's owner up to the highest levels or take him down to darkness and evils.

مقدّمة

اعتمد الإنسان منذ فجر وجوده على المعرفة العلمية لتسيير حياته وتحقيق أهدافه، وقد جعلها الله عزّ وجل مرتبطة به من بداية أمره إلى منتهاه، وهذا ما دلّ عليه البيان القرآني وهو يخبرنا عن نشأة الإنسان، حيث كانت مؤشّرا مفصليا دالا على جوهره الذي غاب عن علم الملائكة، قال تعالى: ((**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** (30) **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** (31) **قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** (32) **قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**)) [البقرة 30 ـ 33] فكانت المعرفة مادّة سؤال الله في بدء حياته، وبعد مماته أيضا، ولذلك يكون إغفالها مصدرا لمشكلات خطيرة، لكون المساءلة يوم القيامة مرتبطةً بالعقائد والقيم، وهذا ما نلمسه ونحن نتلوا قوله تعالى: ((**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** (172) **أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** (173) **وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** (174) **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**)) [الأعراف 172 ـ 175] فالغفلة تعبير عن التّفريط في المعرفة، واتّباع الآباء بالتّقليد الأعمى تفريط فيها من وجه آخر، ولقد ارتبطت هذه المعرفة بنظرة الإنسان للكون والحياة، من خلال البحث عن الحقيقة بعللها، فنشأت مذاهب مختلفة في سعيها لتقديم تفسيرا مقنعا لما يدور حول الإنسان في الوجود، لتوجيه العقل وقيادة الفكر نحو أسمى الغايات، على أسس صحيحة ومناهج سليمة.

وقد شهد التّاريخ فترات استفاد فيها الإنسان بمعرفة حقّقت له طموحاته، وكشفت له عن كثير من تساؤلاته، لأنّه كان في حاجة إلى علم سليم وتفسير دقيق معصوم، منّ الله به عليه من خلال تمكينه من التّعلّم، للقيام بعبادة ربّه القائمة على دوره المعرفي في الحياة، كما قال تعالى: ((**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا** (1) **إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** (2) **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**)) [الإنسان 01 ـ 03] من أجل ذلك يعتبر البحث في طرق الوصول إلى الحق مهمّا، لأنّ المعرفة إحدى نظريّات الاعتقاد

بوجه عام بجانب كما أنّها أعلى وظيفة للإنسان في الوجود، وهل الاعتقاد أو الإيمان إلاّ علم معرفة؟ ويكفينا بيانا لأهمّيتها أنّ اللّه استهلّ كتابه العزيز بالدّعوة إليها في قوله تعالى: ((**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** (1) **خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ** (2) **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ** (3) **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** (4) **عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**)) [العلق 01- 05] وكيف لا تكون مهمّة وهي ميزة الإنسان ومادّة استخلافه في الأرض، ليؤدّي وظيفة العبادة مع سائر الموجودات التّي أشار إليها البيان القرآني في قوله تعالى: ((**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**)) [الإسراء 44] ولمّا كانت المعرفة مرتبطة بتديّن الإنسان، أصبح دراسة هذا الموضوع حاجة ملحّة، طالما يهدف إلى البحث عن الحقيقة، ثمّ إنّ كثيرا من الانحرافات وقعت في المجتمع باسم الدّين أو هروبا منه، كانت بسبب الخلل الذي طرأ على المعارف الدّينية، خللا أدّى إلى نشوء طوائف متناحرة أحيانا وهي تنتمي إلى دين واحد، وكان طبيعيّا أن تختلف نزعاتهم تجاه كثير من الحقائق.

لذلك أسهم العلماء محاولين تقديم تفسير مقنع لانشغالات المسلمين، ومن هؤلاء العلماء أبو حامد الغزالي الذي كانت حياته مليئة بالتّجارب، مفعمة بالنّشاط، فقد كان شخصية علمية، واسع المدارك، متعدد المناهل، لم يرض بالتبعية الفكرية، ولم يقنع بالتقليد، بل حرص على أن تكون علومه مقتبسة من التجربة، ومستفادة من النظر العقلي والمجاهدة النّفسية.

لقد كان الرّجل موسوعيا، ولقد أثنى عليه العلماء في القديم والحديث، وأعجبوا بعلمه، منهم الإمام الذّهبي الذي قال فيه:" الشّيخ الإمام البحر، حجّة الإسلام، أعجوبة الزّمان... زين الدين أبو حامد الغزالي، صاحب التّصانيف والذّكاء المفرط"[1] وابن النجار الحنبلي الذي قال فيه:" أبو حامد إمام الفقهاء على الإطلاق، وربّاني الأمّة بالاتّفاق ومجتهد زمانه وعين أوانه، برع في المذهب والأصول، والخلاف والجدل والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة وفهم كلامهم وتصدّى للردّ عليهم، وكان شديد الذّكاء قويّ الإدراك، ذا فطنة ثاقبة، وغوص على المعاني"[2] و قال عنه شيخ الأزهر الإمام محمد مصطفى المراغي:" إذا ذكرت أسماء العلماء اتّجه بك الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم، وشعب المعرفة، فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابي خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام، و إذا ذكر البخاري ومسلم و أحمد، خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ، والصدق والأمانة، والدقّة ومعرفة الرجال...أمّا إذا ذكر الغزالي فقد تشعّبت النّواحي، ولم يخطر بالبال رجل واحد، بل خطر بالبال الغزالي الأصولي الحاذق الماهر، والغزالي الفقيه الحر، والغزالي

المتكلم، إمام السنّة وحامي حماها، والغزالي الاجتماعي الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب، والغزالي الفيلسوف، أو الذي ناهض الفلسفة وكشف عما فيها، إنّه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره، رجل متعطّش إلى معرفة كلّ شيء، نهم إلى فروع المعرفة"[3] ولقد عاش رحمه الله في عصر اتّسم بحركة علميّة شاملة لمختلف علوم الشّريعة، غير أنّ هذا النّشاط اتّسم بالمذهبيّة والانقسام، واستنفد كثيرا من الجهود التي لا طائل تحتها، ووسم الحياة الثّقافيّة بالتّقليد والجمود وقسّم الأمّة إلى فرق متناحرة متنافرة، ولقد حاول أن يعيد للدّين حيويّته، وللأمّة وحدتها، ببعث السّمت الإيماني في النّفوس، وإعادة بناء المعرفة على أسس سليمة، فقدّم للأمّة نظريّة في المعرفة لتحقيق هذه الغايات.

ومن هنا تأتي أهميّة هذا البحث، لأنّها تتعلّق بالمعرفة، وهي فضيلة في ذاتها، وأبي حامد الغزالي، وهو أحد فرسانها، والحديث عنهما يقتضي التّقديم له ببيان بعض المصطلحات المتّصلة بالموضوع، لحاجة الدّراسة إلى ذلك.

المبحث الأوّل: مفهوم المعرفة والعلم اللّدني

العلم اللّدني والمعرفة قضيتان محوريتان بنى الغزالي عليهما نظريّته، لذا وجب بيانهما عملا بقاعدة الحكم على الشّيء فرع عن تصوّره، وذلك فيما يلي:

المطلب الأوّل: المعرفة اللّغة والاصطلاح

أوّلا: المعرفة في اللّغة

المعرفة لغة مشتقّة من الفعل عرف، وهي حالة تقتضي سكون العارف إلى المعروف واطمئنانه له، خلافا للإنكار الذّي يقتضي وحشة بين المنكِر والمنكَر[4] كما يرى ابن فارس، والجوهري الذّي جعل العُرف ضدّ النُّكر.[5] وعرّف الفيروزبادي المعرفة بقوله عرف الشيء: علمه.[6]

وفي القرآن الكريم لم يرد لفظ المعرفة، إنّما وردت له اشتقاقات، فجاء بصيغة الماضي كما في قوله تعالى: ((**وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**)) [يوسف 58] وجاء بصيغة فعل المضارع كما في قوله تعالى: ((**يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ**)) [النّحل 83] قال الرّاغب الأصفهاني: المعرفة في هاتين الآيتين إدراك الشّيء بتفكّر وتدبّر لأثره.[7]

ثانيا: المعرفة اصطلاحا

عرّفها الغزالي بقوله: المعرفة في اللّغة هو العلم الذّي لا يقبل الشّك، وفي العرف اسم لعلم تقدّمه نكرة.[8] وقد اعتبر المعرفة متعلّقة بالوجدان حيث تتمثّل في تأثّر القلب بما توصّل إليه تأثيرا ينسحب على الجوارح فعبّر عنها بقوله: " وأمّا المعرفة: فهي نفس القرب، وهو ما أخذ القلب وأثّر فيه أثرا يؤثّر في الجوارح، فالعلم كرؤية النّار مثلا والمعرفة كالاصطلاء بها"[9] بينما المعرفة أعمق غورا من العلم إذ تتغلغل في القلوب، وتفيض على الجوارح.

ثالثا: العلم والمعرفة

العلم عنده يتعلّق بالتّصوّر، وقد عبّر عنه بقوله:"العلم إنما هو تصور النفس الناطقة المطمئنة حقائق الأشياء وصورها المجردة عن المواد، بأعيانها وكيفياتها وكمياتها، وجواهرها وذواتها إن كانت مفردة"[10] ويحصل العلم عنده من طريقين: أحدهما التّعليم الإنساني والثّاني التّعليم الرّبّاني[11] وهذا يدعونا إلى تعريف العلم الرّباني.

العلم: عموما مرادف للمعرفة ويراد بهما: إدراك الشّيء على ما هو عليه، فقد عرّفة الباقلاّني بقوله: "معرفة الشّيء على ما هو به"[12] وعرّفه الشّريف الجرجاني بقوله:"هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع" أو"هو صفة راسخة يدرك بها الكليّات والجزئيات "[13] وهنا نلاحظ أنّ المعرفة أخذت بعدا ذوقيا، بينما العلم أخذ بعدا عقليا حسيّا، وهناك وجه آخر للتّباين بينهما، وهو أنّ المعرفة مسبوقة بجهل، وقد يراد بها العلم الذّي تسبقه غفلة، فتكون غالبا لما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإذا أدركه قيل: عرفه، ومنه قوله تعالى عن يوسف عليه السّلام: ((**وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**)) [يوسف 58] والعلم ليس كذلك، ولذلك يقال اللّه عالم ولا يقال له عارف، وخلاف المعرفة الإنكار، لأنّ من معانيها الإقرار والاعتراف، بينما خلاف العلم الجهل.[14]

وكذلك العلم ينقسم إلى أوّلي كالضّروريات، وإلى مطلوب كالنّظريات، والمطلوب في المعرفة لا يقتنص إلاّ بالحد والمطلوب من العلم الذي يتطرّق إليه التّصديق والتّكذيب لا يقتنص إلاّ بالبرهان، فالبرهان والحدّ هو الآلة التّي بها يقتنص سائر العلوم المطلوبة.[15]

فالمعرفة حسب الغزالي تنسحب على الوجدان حيث يشعر بالاطمئنان لما عرفه، والمعارف الإنسانية مهما كان مصدرها يتفاعل معها العقل والقلب، وتتأثّر بها

الجوارح، ولذلك نجدها متميّزة عن العلم في مفهومه الفلسفي العام لا سيما عند الغرب الذي يعتمد اعتمادا كبيرا على مظاهر الطّبيعة، استنادا على التّجربة الحسيّة، حيث يرى أصحاب المذهب الواقعي[16] أنّ الفكر الإنساني لا يدرك سوى الظّواهر الواقعيّة المحسوسة وقوانينها، والمثل الأعلى عندهم لليقين يتحقّق في العلوم التّجريبيّة، ويذهبون إلى أبعد من ذلك حين يقصون ثمرة العلوم التّي لم تأت عن طريق التّجارب الحسيّة فيقولون:" كلّما أمكن معالجة مسألة بالملاحظة والاختبار انتقلت هذه المسألة من الفلسفة إلى العلم، أمّا المسائل التّي لا تقع تحت الملاحظة، فهي خارجة عن دائرة العلم" [17]

وعليه فإنّ العلم عندهم محصور في المجال الرّياضي والطّبيعي، الخاضع للتّجربة والمقاييس الكميّة، وهذا التّحديد لمفهوم العلم قد أدّى إلى إنكار ما وراء الطّبيعة أو التّقليل من شأنه، وهذا مخالف لمفهوم العلم في الإسلام الشّامل لجميع أنواع المعارف الإنسانيّة، سواء كان مصدرها العقل أو النّقل أو الحس، ومخالف أيضا لمفهوم العلم كما هو في الواقع، ولا يقال إنّه مصطلح ولا مشاحة في الاصطلاح، لأنّه يمثّل مذهبا من مذاهب نظريّة المعرفة[18] التّي تحكم على الوجود قبولا ورفضا من خلاله، نافية على أساسه كلّ مصدر سوى التّجربة، وأيّ وجود غير الوجود المادّي، ممّا يؤدّي إلى هدم الأديان والأخلاق.

المطلب الثّاني: تعريف العلم اللّدني

لا نجد للعلم اللّدني معنى لغويا إنّما له معنى اصطلاحي، والمصطلح أخذه مستخدموه من قوله تعالى: ((**فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**)) [الكهف 65] ويقصدون به العلم الذي يأتي من عند الله، يهبه لمن يشاء من عباده، فإن اقترنت كلمة "لدن" مع الوهب الإلهي فهي دلالة على العطاء على سبيل الخصوصية، ومنه جاء قوله تعالى: ((**رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ**)) [آل عمران 08].

أوّلا: العلم اللّدني في اللّغة والاصطلاح

01. **العلم اللّدني لغة:** العلم نقيض الجهل، يدلّ على أثر بالشّيء يتميّز به عن غيره، ومن ذلك العلامة، [19] وهو المعرفة كما ذهب إلى ذلك الفيروزبادي.[20] اللّدني من لدن: وهو ظرف زمان ومكان بمعنى عند ويغلب استعماله مجرورا بمن، وعلم لدني علم رباني يصل لصاحبه عن طريق الإلهام.[21]

02 ـ **العلم اللّدني اصطلاحا:** عرّفه القنّوجي بقوله:"هو العلم الذي تعلمه العبد من الله تعالى، من غير واسطة ملك أو نبي بالمشافهة والمشاهدة."[22] وقد عبّر عنه الغزالي بقوله:" هو العلم الذي لا واسطة في حصوله بين النّفس وبين الباري"[23] فالمقصود به العلم الذي يقذفه الله في قلب عباده من غير تعليم من أحد.

نلاحظ في هذا التّقسيم أنّ العلم يحتاج إلى سابق معرفة، وأدنى مراتبها تصوّر المعلوم، وأعلاها الحكم عليه، وهذه المعرفة منها الضّرورية، الذي لا تقتضي جهدا في تحصيلها، ومنها الكسبية التّي تتطلّب جهدا في تحصيلها وهذا يجرّنا إلى بيان المعرفة المبنيّة على النّظر والاستدلال.

ثانيا: حقيقة المعرفة اللّدنيّة

الحديث عن منطلقات المعرفة الحاصلة من العلم اللّدني، يقتض عرض موجز لنظرته له، حتّى نتمكّن من تصوّر الموضوع تصوّر بعيدا عن الغموض قريبا إلى الدّقة والوضوح، من خلال العناصر الآتية:

ثالثا: نظرة الغزالي إلى العلم اللّدني

جعل الغزالي المعرفة أعلى مراتب العلم، حيث ميّزها بأمرين:

الأوّل: أنّها علم لا يقبل الشّك، الثّاني: تجاوزها مرحلة التّصوّر، فإذا كان العلم كما قال:"إنّما هو تصور النفس لحقائق الأشياء وصورها المجردة"[24] فإنّ المعرفة لا تخضع لهذا الوصف، إنّما تكمن بالشّعور الوجداني من القرب بالمعلوم، وهو في أعلى مراتبه الله عزّ وجل، كما قال:" ولا شكّ أنّ أفضل المعلومات وأعلاها، وأشرفها وأجلها هو الله سبحانه..."[25] فالمعرفة التّي يدور الحديث حولها هي معرفة الله، وهي تعتمد على الشّعور القلبي بوجوده المعلوم وليست مجرّد ثقافة في الأذهان، وهذا ما لا نجد له ذكرا في كتب العقائد عموما، فإنّ المباحث المرتبطة بوجود الله تركّز على العقل وليس على القلب، ومن التّعليلات التّي قدّمها علماء العقائد في اعتمادهم على العقل، قولهم:" إنّ الله أرشد النّاس إلى معرفته بطريق التّدبّر في الأنفس والآفاق، وحثّهم على سلوك هذا الطّريق، وشدّد النّكير على من فرّط في معرفته بالانصراف عنه، وقد بلغت الآيات في ذلك من الكثرة مبلغا، يورّث يقينا بأنّ مسلك العقل في معرفة الله ينبغي أن يُعتمد بحكم الشّرع نفسه، وإلاّ فما معنى أن يأمر به ويذمّ المعرض عنه؟ وقد وعد سبحانه بإظهار الآيات للنّاس ليتبيّن لهم الحق اعتمادا على النّظر والتّأمّل، قال تعالى: ((**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**)) [فصّلت 53]

كما أنّ العقل عام في النّاس بحسب الخِلقة، في الحدّ الأدنى الذّي يمكّن من النّظر، لاستنتاج العلّة من المعلول ومهما وقع من اختلاف في تقدير مدى الطّاقة العقليّة في إدراك الحقيقة، فإنّ الاتّفاق منعقد على هذا الحدّ من الإدراك القائم على العليّة، وهو ما يفسّره الأمر القرآني بالتّدبّر متّجها إلى كافّة النّاس، كما في قوله تعالى: ((**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ** (17) **وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ** (18) **وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ** (19) **وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** (20) **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ** (21) **لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ** (22) **إِلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ** (23) **فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ** (24) **إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ** (25) **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**)) [الغاشية 17 ـ 26] فلو لم يكن ذلك القدر حاصلا لكافّة النّاس ما كان الخطاب القرآني عاما فيهم" [26] والذّي يضيفه الغزالي رحمه الله في هذا الشّأن أنّ المعرفة تتميّز عن العلوم المألوفة، لأنّها لا تعتمد على قياس أو تجربة، وإنّما على قوّة روحيّة تجعل القلب يدرك حقيقة المعلوم إدراكا مباشرا، بنور يقذفه الله في قلب العبد، وهو عين العلم اللّدني، وهنا نتساءل: كيف تتمّ هذه المعرفة؟ وكيف يتمكّن القلب من التّواصل بالمعلوم تواصلا سليما؟
وما هي منطلقاتها عنده؟ هذا ما نسعى للكشف عنه فيما يلي:

المطلب الثّالث: منطلقات المعرفة اللّدنيّة

يرى الغزالي أنّ مبدأ معرفة الله وأساسه معرفة العبد لنفسه، بملاحظة طبائعها، والحذر منها، ومعرفة حيل الشّيطان ومخادعاته حيث قال:" اعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس كما قال سبحانه وتعالى: ((**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**)) [فصّلت 53] ثمّ قال وورد في الأثر: ((**من عرف نفسه فقد عرف ربّه**))[27] وليس شيء أقرب إليك من نفسك، فإذا لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك[28] فقد بيّن أنّ الانطلاقة من معرفة الله تكمن في معرفة الإنسان لنفسه، لكن هذه المعرفة ليست عامّة، وإنّما معرفة تفصيليّة للنّفس،وذلك بما يلي:

أوّلا: معرفة صفات النّفس مفتاح لمعرفة الله

بما أنّ معرفة الله متوقّفة على معرفة الإنسان لنفسه، فقد شرع في بيان كيفيتها، وذلك بذكر صفاتها بأسلوب مثير لهمّة السّامع في التّفكير، لحمله على مراجعتها، وإخراجها من دائرة التّقليد إلى نطاق التّحقيق، فقال: "فإن قلت إنّي أعرف نفسي فإنّما تعرف الجسم الظّاهر، الذي هو اليد والرّجل والرّأس والجثّة، ولا تعرف

ما في باطنك من الأمر الذي به إذا غضبت طلبت الخصومة، وإذا اشتهيت طلبت النّكاح، وإذا عطشت طلبت الشّرب، والدّواب تشاركك في هذه الأمور، فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة، حتّى تدري أيّ شيء أنت، ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأيّ شيء خلقت، وبأيّ شيء سعادتك، وبأيّ شيء شقاؤك"[29] فنراه يثير أسئلة ذات أهمّية بالغة، فالإنسان ليس بالجثّة والأعضاء فقط، وليس بالرّغبة والشّهوات، فالحيوان يشاركه في ذلك، وعليه لا ينبغي أن يرتع مع الحيوان، ثمّ نجده يدركنا بالجواب عن هدف الخلق وسبب السّعادة فيقول:" لقد جمعتَ في باطنك صفاتٍ، منها صفاتُ البهائم، ومنها صفات السّباع، ومنها صفات الملائكة فالروح حقيقة جوهرك وغيرُها غريب منك وعاريةٌ عندك، فالواجب عليك أن تعرف هذا وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة، فإن سعادة البهائم في الأكل والشرب والنوم والنكاح، فإن كنت منهم فاجتهد في أعمال الجوف والفرج وسعادة السباع في الضرب والفتك، وسعادة الشياطين في المكر والشرّ والحيل، فإن كنت منهم فاشتغل بأشغالهم وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال حضرة الربوبية، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق"[30]

والإمام في هذا النّص يبصّرنا بطبائعنا، ويأخذ بأيدينا للسّيطرة عليها، ويدعونا لإدراك وظائفها للتّمكّن من توجيهها توجيها سليما، ويعلّمنا أن الاختيار بيدنا، فإما السّمو إلى درجات الملائكة أو السّقوط إلى دركات الحيوان، فيقول: " فإن كنت من جوهر الملائكة فاجتهد في معرفة أصلك حتى تعرف الطّريق إلى الحضرة الإلهية وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال، وتخلّص نفسك من قيد الشّهوة والغضب، وتعلم هذه الصّفات لأيّ شيء ركّبت فيك، فما خلقها الله تعالى لتكون أسيرها، ولكن خلقها حتّى تكون أسراك وتسخّرها للسّفر الذي قدّامك وتجعل إحداها مركبك، والأخرى سلاحك، حتّى تصيد بها سعادتك، فإذا بلغت غرضك فقاوم بها تحت قدميك وارجع إلى مكان سعادتك، وذلك المكان خواص الحضرة الإلهيّة وقرار العوام درجات الجنّة، فتحتاج إلى معرفة هذه المعاني حتّى تعرف من نفسك شيئا قليلا، فكلّ من لم يعرف هذه المعاني فنصيبه من القشور، لأنّ الحقّ يكون عنه محجوبا"[31] وبعد بيانه لطبائع النّفس حذّر من مغبّة الغفلة عن عداوتها، فقال:" ثمّ عليك بالحذر من هذه النّفس فإنّها أضرّ الأعداء، وعلاجها أعسر الأشياء، لأنّها عدوّ من داخل، واللّصّ إذا كان من أهل البيت عزّت الحيلة فيه وعظم ضرره، ولأنّها أيضا عدوّ محبوب، والإنسان أعمى عن عيب محبوبه، لا يكاد يرى عيبه، ولا يبصره، ثمّ الحيلة في أمرها أن تلجمها بلجام

التّقوى، والورع ليحصل لك فائدة الامتثال والانتهاء، واعلم أنّه لا يذلّ النّفس ويكسر هواها إلاّ ثلاثة أشياء:

الأوّل: منعها عن شهوتها، **الثّاني:** حمل العبادات عليها، **الثّالث:** الاستعانة باللّه عليها، والتّضرّع إليه، وإلاّ فلا يخلص من شرّها إلاّ به سبحانه وتعالى.[32]

لقد رسم الغزالي في هذين النّص خطّة في التّزكية للوصول إلى الحضرة الإلهيّة، مع عدم إغفال طبائع البشر النّزّاعة إلى الظلم و الآثام، ببيان الأسباب المنقذة له من الوقوع في هذه الموبقات، وقد نبّه ابن القيّم إلى هذا الأمر بقوله:" اتّفق السّالكون على اختلاف طرقهم، وتباين سلوكهم على أنّ النّفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الربّ، وأنّه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلاّ بعد إماتتها والظّفر بها، فإنّ الناس على قسمين: قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته وصار طوعا لها تحت أوامرها، وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها، فصارت طوعا لهم منقادة لأوامرهم"[33] فالاعتناء بتزكية النّفس أمر ضروريّ للتّخلّص من الآثام، وإدراك التّوفيق الإلهي في المعرفة.

ثانيا: الاعتناء بالعلم والعبادة

اعتبر الغزالي العلم والعبادة ضروريان لتحقيق الخشية وإدراك المعرفة، كما أنّ الحرص على طهارة القلب هي المنجّية للعبد إن وقع في الموبقات، وأنّ امتلاءه بالمعرفة رأس الفضائل، لذلك ينبغي إدراك ذلك بتحقيق هذه المعاني في النّفس، والحرص على معرفة مداخل الشّيطان، وفق البيان الآتي:

01. المعرفة ثمرة الاعتقاد والعلم

قال رحمه اللّه:" فاعلم أنّ الاعتقاد والعلم إذا استوليا على القلب، ولم يكن لهما معارض أثمر في القلب المعرفة فسمّيت هذه المعرفة يقينا، لأنّ حقيقة اليقين، صفاء العلم المكتسب، حتّى يصير كالعلم الضّروري ويصير القلب مشاهدا لجميع ما أخبر عنه الشّرع من أمر الدّنيا والآخرة، يقال أيقن الماء إذا صفا من كدوراته، ومن ثمار هذا العلم الإلهام، وهو: حصول هذه المعرفة بغير سبب ولا اكتساب، وإنّما بإلهام من اللّه بعد طهارة القلب"[34] وبيّن رحمه اللّه أنّ العبد إذا تمكّن من تطهير قلبه غمره بمعرفة ربّه، فاستحقّ القرب منه، ورفع من قدر توحيده فقال:" اعلم أنّ السّعادة كلّها والباقيات الصّالحات أجمعها، التي تبقى معك إذا غرقت سفينتك في شيئين:

الأوّل: سلامة القلب وطهارته من غير اللّه لقوله تعالى: ((**إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**)) [الشّعراء 89]

والثّاني: امتلاء القلب بمعرفة اللّه تعالى، التي هي المقصودة من خلق العالم، وبعثة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم وحسن الخلق هو الجامع لها، ولا أعلم خصلة تزيد عليه في الفضل، قال تعالى: ((**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**)) [فاطر 10] والكلم الطيّب هو التّوحيد والمعرفة، والعمل الصّالح هو طهارة القلب الرّافعة لقدر التّوحيد والمعرفة، ومعنى الرّفعة حضور القلب وتأثّره بهما، لينقاد خضوعا ومسكنة ومهابة، فحينئذ يكون قريبا من اللّه تعالى."[35]

02. ضرورة تقديم العلم على العبادة وعلّته

لم يكتف بتقديم ما يجب القيام به، للقرب من اللّه وإدراك المعرفة التي يتفضّل بها على عباده، إنّما دلّ على ترتيب الواجبات، إذ لا ينبغي أن تقدّم الأعمال جزافا، فأرشد إلى ضرورة تقديم العلم على العمل، مبرّرا هذا التّرتيب فقال:"اعلم أنّ العلم والعمل لأجلهما خلقت السّماوات والأرض، وما فيهما، قال تعالى: ((**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**)) [الطّلاق 12] وكفى بهذه الآية دليلا على شرف العلم ووجوب طلبه، لا سيما علم التّوحيد، وقال أيضا: ((**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ**)) [الذّاريات 56] وكفى بهذه الآية دليلا على شرف العبادة ولزوم الإقبال عليها، فأعظم بأمرين هما المقصود من خلق الدّارين، فحقّ العبد أن لا يشتغل إلاّ بهما، وأن لا يتعب إلاّ لهما، ثمّ العمل هو أشرف الجوهرين، ولكن لا بدّ من العبادة مع العلم، وإلاّ كان العلم هباء منثورا" ثمّ قال:" واعلم أنّه يجب تقديم العلم على العبادة لأمرين: أحدهما لتصحّ لك العبادة وتسلم، والثّاني: هو أنّ العلم النّافع يثمر الخشية والمهابة للّه تعالى في قلب العبد، وهما يثمران طاعة ويحجزان عن المعصية بعون اللّه تعالى وتوفيقه، وليس وراء هذين مقصد للعبد في عبادة ربّه سبحانه وتعالى، فعليك بالعلم النّافع، فيجب عليك أوّلا أن تعرف المعبود ثمّ تعبده... ثمّ عليك أن تعلم ما يلزمك فعله من الواجبات الشّرعيّة لتفعله على ما أمرت به، وما يلزمك تركه من المناهي الشّرعيّة لتتركه، فإنّ أدّيت هذا صرت من العلماء العاملين."[36] فالعلم والعبادة أساس المعرفة وقاعدتها، غير أنّه ينبغي أن يقدّم العلم لأنّه الضّامن لسلامة العمل وحسن التّطبيق.

ثالثا: معرفة مداخل الشّيطان

الشّيطان طرف مهمّ في عمليّة التّزكية، فهو من جهة عائق من عوائقها، ومن جهة أخرى محفّز للتّمسّك بأهدابها، وقد أمرنا اللّه أن نتّخذه عدوّا في قوله تعالى: ((**إِنَّ**

الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ))
[فاطر 06] وقد أرشد الغزالي إلى ضرورة معرفة حيله ومخادعاته، فقال:" أمّا معرفة الحيل والمخادعات من الشّيطان مع ابن آدم في الطّاعات فهي من سبعة أوجه: أن ينهاه عن الطّاعات، فإن عصمه الله منه أمره بالتّسويف، فإن سلّمه الله منه أمره بالعجلة، فإن نجّاه الله منه أمره بإتمام العمل مراءاة، فإن حفظه الله منه أدخل عليه العجب، فإن رأى منّة الله تعالى عليه أمره بالاجتهاد في السرّ وقال له: إنّ الله تعالى سيظهره عليك، يريد بذلك جريا الرّياء، فإن اكتفى بعلم الله نجا منه، فإن لم يطعه في شيء من ذلك كلّه وعجز عنه وقال له: لا حاجة لك إلى هذا العمل، لأنّك خلقت سعيدا، لم يضرّك ترك العمل، وإن خلقت شقيا لم ينفعك فعله، فإن عصمه الله تعالى منه، وقال له: أنا عبد وعلى العبد امتثال أمر سيّده، وسيّده يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، نجا منه بتوفيق الله تعالى وإلاّ هلك"[37] ويجب أن تستمرّ هذه العمليّة دون انقطاع، بالتّذكّر الذي يعني على حدّ تعبيره:" هو تكرار المعارف على القلب لتثبت وترسخ" وبالتّفكّر الذي عبّر عنه بقوله:" وأمّا التّفكّر فهو أن تجمع بين علمين مناسبين للعلم الذّي أنت طالبه، بشرط عدم الشكّ فيهما، وفراغ القلب من غيرهما، فلم يشعر إلاّ وقد انتقل القلب من الميل الخسيس إلى الميل النّفيس، إحضارا لمعرفتين يسمى تذكّرا، والتّذكّر يتعلّق بالعقد والقول، والفعل والتّرك"[38]

إذن العلم الحقيقي عنده يكمن في معرفة النّفس وصقلها بالعلوم، لتكون وعاء طاهرا يسخّر هذه المعارف إلى ما خلقت له، من الخير والسّعادة والبذل.

وعليه فإنّ التّزكية لازمة للسير إلى الله، والسّير إلى الله يكون بهداية عبده وإلهامه، هبة من لدنه سبحانه للذّين تمكّنوا من تطهير نفوسهم.

رابعا: طرق التحصيل العلمي

بعد بيان أصناف العلوم انتقل لبيان طرق تحصيلها فقال: اعلم أن العلم الإنساني يحصل من طريقين أحدهما: التّعليم الإنساني، والثاني: التّعليم الرّباني.

أما الطّريق الأول: فطريق معهود ومسلك محسوس يقرّ به جميع العقلاء.

وأما التعلم الرباني فيكون على وجهين: أحدهما من خارج وهو التحصيل بالتعلّم، والآخر من داخل وهو الاشتغال بالتّفكر، والتفكر من الباطن بمنزلة التعلم في الظاهر، فإن التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئي، والتفكر استفادة النفس من النفس الكلي، والنفس الكلي أشد تأثيراً وأقوى تعليماً من جميع العلماء والعقلاء.[39] وهنا يقصد الإلهام، أي المعرفة من خلال الموهبة وليست المكتسبة.

أما الطّريق الثّاني: وهو التّعليم الرّباني على وجهين:

الأوّل: إلقاء الوحي، وهو أن النّفس إذا أكملت ذاتها يزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل، وينفصل نظرها عن شهوات الدنيا، وينقطع نسبها عن الأماني الفانية، وتقبل بوجهها على بارئها، وتعتمد على إفادته وفيض نوره، واللّه تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النّفس إقبالا كلّيا، وينظر إليها نظرا إلهيا، ويتّخذ منها لوحا ومن النّفس الكلّي قلما، وينقش فيها جميع علومه، ويصير العقل الكلي كالمعلم، والنفس القدسية كالمتعلّم، فتحصل جميع العلوم لتلك النفس، وتنتقش فيها جميع الصور، من غير تعلّم ولا تفكّر، ومصداق هذا قوله تعالى لنبيّه صلّى اللّه عليه وسلّم: ((**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**)) [النّساء 113] فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق، لأنّ محصوله من اللّه تعالى بلا واسطة ووسيلة ، وإنما هو الوضوء من سراج الغيب، يقع على قلب صاف فارغ لطيف، ومن هنا فقد تقرّر عند العقلاء أنّ العلم الغيبي المتولّد عن الوحي أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة، وصار علم الوحي إرث الأنبياء وحق الرسل، وأغلق اللّه سبحانه باب الوحي من عهد سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم، وإنما كان علمه أكمل وأشرف وأقوى لأنّه عن بالتّعلّم الرّباني وما اشتغل قط بالتّعلّم والتعليم الإنساني، قال تعالى : ((**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**)) [النّجم 05]

الوجه الثّاني: الإلهام وهو تنبيه النّفس الكليّة للنّفس الجزئية الإنسانية، على قدر صفائها وقبولها وقوّة استعدادها والإلهام أثر الوحي، فإنّ الوحي هو تصريح الأمر الغيبي، والإلهام هو تعريضه، والعلم الحاصل من الوحي يسمّى علما نبويّا، والعلم الحاصل من الإلهام يسمى علما لدنيا، والعلم اللّدني هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين البارئ، فالوحي حلية الأنبياء، والإلهام زينة الأولياء، فالولي دون النّبي، فكذلك الإلهام دون الوحي" [40]

والعلم اللّدني يكون لأهل النّبوة والولاية، كما كان للخضر عليه السلام، حيث أخبر اللّه عنه فقال: ((**وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**)) [الكهف 65] فإذا أراد اللّه بعبده خيرا رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس التي هي اللوح فتظهر فيها أسرار بعض المكنونات، وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللّدني، وما لم يبلغ الإنسان هذه المرتبة لا يكون حكيما، لأنّ الحكمة من مواهب اللّه، قال تعالى: ((**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ**)) [البقرة 269] لأنّ الواصلين إلى مرتبة العلم اللدني مستغنون عن كثرة التّحصيل وتعب

التّعليم، فيتعلّمون قليلا ويعلمون كثيرا، وممّا لا ريب فيه أن الوحي قد انقطع، وباب الرسالة قد انسدّ، أما باب الإلهام فلا ينسد" [41]

وحتّى لا نظنّ بأنّه يدعو إلى الخمول والكسل في طلب العلم، فقد بيّن أنّ الإلهام لا يناله الجاهل بجهله، إنّما يقتضي دوام المدارسة والمطالعة، والتّزكية والمراقبة، العمل بما تعلّم.فقال:" ويحصل هذا العلم بثلاثة أمور: أحدها: تحصيل جميع العلوم، وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها.

والثّاني: الرّياضة الصّادقة والمراقبة الصّحيحة، فإنّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم أشار إلى هذه الحقيقة، فقال: "من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم"[42]

الثّالث: التّفكّر فإنّ النّفس إذا تعلّمت وارتاضت بالعلم ، ثمّ تتفكّر في معلوماتها بشروط الفكر ينفتح عليها باب الغيب، كالتّاجر الذي يتصرّف في ماله تنفتح عليه أبواب الرّبح، فالمتفكّر إذا سلك سبيل الصّواب يصير من ذوي الألباب، عالما كاملا ملهما مؤيّدا.[43]

فالعلم اللدني الذي يهبه الله لعباده الصّالحين في نظر الغزالي، لا يحصل بالامتناع عن العلم والعزوف عن طلبه كما قد يتوهّم البعض، إنّما بالعكوف على الدّراسة، والسّهر على تهذيب النّفس وتزكيتها، فيتّحد العلم بالعمل وقد صرّح رحمه الله بذلك في رسالته الموسومة بمنهاج العارفين، فقال:" باب البيان على المريدين يدور على ثلاثة أصول: الخوف والرّجاء والحب:

الخوف فرع العلم، والرّجاء فرع اليقين، والحبّ فرع المعرفة، فدليل الخوف الهرب، دليل الرّجاء الطّلب، ودليل الحب إيثار المحبوب، وإذا ظهر نور المعرفة عزل ظلمة المعاصي عن الجوارح" [44]

وفي الأخير يمكن القول بأنّ أبا حامد الغزالي تمكّن بفكره الثّاقب، وتجربته الرّوحية من وضع يده على نقاط مفصليّة في مسألة المعرفة، فهي من الله وإليه، لقد علّمنا أن نكون مع الله في كلّ مراحل تحصيلها، انطلاقا من الاستعانة بالله والإخلاص له، والاهتمام بأمراض النّفوس وتزكيتها، والاجتهاد في تحصيل العلم ومذاكرته، والحرص على العمل ومداومته، ليصبح العبد ربّانيا يرى بنور الله، وينجو من كيد الشّياطين، فالمعرفة عنده ليست علما عقليا صرفا، وليست جهدا بشريا خالصا، وإنّما هي علم ومجاهدة، مكاسب ومواهب.

وبعد هذا البيان ننتقل إلى بيان موقفه من الجهد البشري في مسألة المعرفة، فما هي نظرته إليه؟ هذا ما سنقوم بعرضه في ما يلي:

المبحث الثّاني: المعرفة الكسبية وطرق الوصول إليها

مرّ بنا أنّ الغزالي اعتبر أنّ العلم والاعتقاد إذا استوليا على القلب، ولم يكن لهما معارض أثمر في القلب معرفة يقينية، لأنّ حقيقة اليقين، صفاء العلم المكتسب، حتّى يصير كالعلم الضّروري، ويصير القلب مشاهدا لجميع ما أخبر عنه الشّرع من أمر الدّنيا والآخرة، ومن ثمار هذا العلم الإلهام، كما قرّر وجوب تقديم العلم على العمل لأمرين: أحدهما: لتصحّ العبادة وتسلم، والثّاني: لإثمار الخشية والمهابة لله، إذ العلم النّافع مضيا لهما."[45]

وعليه فإنّه يدعونا بهذا الكلام إلى الاجتهاد في طلبه، لكن يريد منّا التّمسّك باليقين، وبذل الجهد في سبيل ذلك فكلّ جهد في العلم يهون ما دام يندرج في سلك العبادات.

والسّؤال الذي يطرح هنا: ما هي المنطلقات التي اعتمد عليها في الوصول إلى اليقين في المعرفة؟ وهل يصل فعلا الإنسان بجهده؟ هذا ما يريد عرضه علينا، بعد عرضه لتجربته الروحية التّي مرّ بها.

المطلب الأوّل: منطلقات الرحلة إلى اليقين

اعتمد الغزالي في رحلته إلى اليقين على عمل منهجي محكم، فهو لم يتّجه إلى هدفه اتّجاها عشوائيا، إنّما كان واعيا بمراحل الطّريق ومشاقه، محدّدا غايته، مستعدّا لتحمّل تبعاته، ويظهر لنا هذا من فاتحة كتابه المنقذ من الضّلال حيث أفصح عن مقصده فقال:" فقد سألتني أيها الأخ في الدين، أن أبثّ إليك غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق، مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد، إلى يفَاع (المكان المرتفع) الاستبصار"[46] ولبلوغ مقصده حدّد أمورا انطلق منها إلى وجهته، ويمكن إجمالها فيما يلي:

أوّلا: المعرفة الدقيقة للميدان

أوّل ما يسترعي انتباهنا في حياته وهو يسعى لبلوغ الحقيقة الخاصة به، اهتمامه الكبير بمعرفة الواقع الذي يعيشه والظّروف المحيطة به، وهو بهذا يعلّمنا مراعاة الظّروف الاجتماعيّة والثّقافية وغيرها..وعدم إغفالها أثناء البحث عن الحقيقة، وهذا ونستشفّ هذا من قوله:" ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجّة هذا البحر العميق، أتوغّل وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في

كل مظلمة، وأتهجّم على كل مشكلة، وأتقحّم كل ورطة، أتفحص عن كل عقيدة فرقة، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميّز بين محق ومبطل و متسنّن ومبتدع، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلما إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سرّ صوفيته، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسّس وراءه للتنبّه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته "[47]

فهو ينطلق من إخبارنا أنّه على معرفة دقيقة ببيئته، معرفة مبنية على الحضور والمعاينة، فليس الخبر كالمعاينة ليعلّمنا أنّ المنطلق الأوّل للحقيقة يكمن في الاقتراب من الأفكار، وعدم الاكتفاء بمتابعتها من بعيد، وهذا شأن الصّادقين في البحث عن الحقيقة، وهو منهج الأنبياء كذلك، لذلك وجدناهم من خلال قراءتنا للقرآن الكريم يتّفقون على وحدة الرّسالة متمثّلة في الدّعوة إلى توحيد الله ونبذ الشّرك، ثمّ ينطلقون لإصلاح المجتمع، كلّ حسب ظروف بيئته فلوط مثلا ركّز على الإصلاح الأخلاقي، وشعيب على الإصلاح الاقتصادي، وموسى على الإصلاح السّياسي ولقد شاءت الحكمة الإلهيّة أن يرسل أنبياءه بعد مكوثهم بين أقوامهم مدّة، ليتمكّنوا من مخاطبتهم بلغتهم، وحسب نمط تفكيرهم حتّى يبيّنوا لهم ما أنزل إليهم، وفي هذا يقول الله عزّ وجل: ((**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**)) [إبراهيم 04] كما نهى المؤمنين عن إصدار الأحكام دون علم فقال: ((**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا**)) [الإسراء 36]

ثانيا: التحرر من التقليد

شاهد الغزالي اضطراب الفرق واختلاف المذاهب وتباين الملل في زمانه، فشبّه ذلك ببحر غرق فيه الأكثرون فرغب في ركوبه وخوض غمرته، وكان ذلك بدافع طبيعي في نفسه[48] حيث قال:" اعلموا أحسن الله تعالى إرشادكم وألآنَ للحق قيادكم، أنّ اختلاف الخلق في الأديان والملل، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب، على كثرة الفرق وتباين الطّرق، بحر عميق غرق فيه الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلّون، وكلّ فريق يزعم أنّه الناجي، و((**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**)) [الروم 32] هو الذي وعدنا به سيد المرسلين صلوات الله عليه[49] وهو الصادق المصدوق حيث قال: ((**ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة الناجية منها واحدة**))[50]

لقد دفعته نفسه إلى اقتحام ذلك البحر ما كان له أن يتأخّر، لأنّه جبل على معرفة حقائق الأمور فقال:"وقد كان التّعطّش إلى إدراك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلّتي، لا اختياري وحيلتي حتى انحلت عقدة التقليد وانكسرت علّي العقائد الموروثة عن عهد سنّ الصبا، إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام، وسمعت الحديث المروي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول: ((**كلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجّسانه**))[51] فتحرك باطني إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية وحقيقة الحقائق العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات، وأوائلها تلقينات، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات فقلت في نفسي: إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي، فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين، مقارنة لو تحدي بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا، لم يورّث ذلك شكا وإنكارا، فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائل: لا، بل الثلاثة أكثر من العشرة بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا وقلبها وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجّب من كيفية قدرته عليه! فأمّا الشكّ فيما علمته فلا علمته فلا".[52]

لقد ولّد الفحص عن عقائد الفرق في نفسه شكّا فلسفيا، وليس إيمانيا، لأنّه شكّ في ما يدّعيه أتباع المذاهب وكان أوّل الشّك عنده انحلال رابطة التّقليد، لأنّه لم يجد فيها علما يقينيا، ولا وسيلة للتّمييز بين الحق والباطل فقال في نفسه: إنّ مطلوبي العلم بحقائق الأمور، لكن ما هي حقيقة العلم؟ هل يمكن الوصول إلى حقائق الأمور عن طريق التّقليد؟ طبعا لا يمكن، لأنّ التّقليد[53] لا يفضي إلى العلم، وإذا انحلّت رابطته فلا مطمع إلى الرّجوع إليه، فلا بدّ من بيان حقيقة العلم اليقيني، ما هي؟

لقد قامت شكوك الغزالي في علوم عصره على دراسة واعية لما هو موجود وقائم، وقد أدرك أنّما لم تكن قادرة عن الإجابة عن التّساؤلات حول كثير من القضايا العالقة، لذلك تيقّن أنّ التّقليد لا يزيد الأمر إلاّ تعقيدا، حيث يؤدي إلى التّعصّب ويحول دون الفهم، فما هو الأساس الذي اعتمد عليه في بناء المعرفة؟

أساس بناء المعرفة العلمية

انطلق الغزالي في بناء المعرفة العلمية من التّخلّص من الموروثات التّي تلقّاها، وإعادة البناء المعرفي من جديد بطريقة عجيبة، وفق البيان الآتي:

أوّلا: الشّك في المسلّمات

اقتنع الغزالي أن الآراء السائدة في عصره، هي المسؤولة عن الأزمة التي يعيشها المجتمع، وأنها غير قادرة على تقديم حلولا، فبدأ ببناء منهجه، متّخذا من الشك والفحص والتّحري، قاعدة انطلاق لاختبار المنظومة المعرفية التي أمامه، لأنّ الشّكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال، كما قال في آخر كتابه ميزان العمل[54] وقد قرّر الاعتماد على اليقين دون سواه، بما يلي:

01. الشّك في الحسّيات

قال:" ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات. أي لم يجد اليقين إلاّ في الحسّيات والضروريات. فقلت: الآن بعد حصول اليأس، لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليّات، وهي الحسيات والضروريات، فلا بد من إحكامها أولاً لأتيقن أن ثقتي بالمحسوسات، وأماني من الغلط في الضروريات، من جنس أماني الذي كان من قَبلُ في التقليديات، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات، أم هو أمان محققٌ لا غدر فيه ولا غائلة له؟ فأقبلت بجد بليغ أتأمل المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها فانتهي بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضا، وأخذت تتّسع للشك فيها وتقول : من أين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر؟ و هي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة، وبعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة، بل على التّدريج ذرة ذرة حتى لم يكن له حالة وقوف.

وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار. وهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته، فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا.[55]

وممّا هو معلوم أنّ المحسوسات من مصادر العلم اليقينيّة، ومع ذلك توصّل إلى التّشكيك فيها، ممّا يدلّ على أنّه لم يقم بعمليّة التّرميم لمعارفه، إنّما عمليّة هدم شاملة لإعادة البناء من جديد.

02. الشكّ في العقليات

بعدما سحب ثقته من الحسّيات، انتقل إلى العقليات، فقال:" فلعلّه لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديما، موجوداً معدوما، واجبا محالا، فقالت المحسوسات: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنت واثقاً بي، فجاء حاكم العقل فكذّبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي، فلعلّ وراء إدراك العقل حاكماً آخر، إذا تجلى كذّب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذّب الحسّ في حكمه، وعدم تجلي ذلك الإدراك، لا يدلّ على استحالته، فتوقّفت النفس في جواب ذلك قليلا، وأيّدت إشكالها بالمنام وقالت: أما تراك تعتقد في النوم أمورا، وتتخيّل أحوالا، وتعتقد لها ثباتا واستقرارا، ولا تشك في تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل، فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك، كنسبة يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها! فإذا وردت تلك الحالة تيقّنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها، ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم، إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم، إذا غاصوا في أنفسهم، وغابوا عن حواسهم، أحوالاً لا توافق هذه المعقولات، ولعل تلك الحالة هي الموت، فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن فيقال له:((**لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**)) [ق 22]

ثانيا: الوصول إلى اليقين بنور الله رب العامين

فلما خطرت لي هذه الخواطر وانقدحت في النفس حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر إذ لم يكن دفعه إلا بالدّليل ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية، فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل، فأعضل هذا الداء، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السّفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى

الواسعة، ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن الشرح ومعناه في قوله تعالى: فيقال له: ((**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ**)) [الأنعام 125] قال: ((**هو نور يقذفه الله تعالى في القلب، فقيل: وما علامته؟ قال: التجافي عن دار الغُرُورِ والإنابة إلى دارِ الخُلُود**))[56] فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحايين، ويجب التّرصّد له كما قال صلى الله عليه وسلّم: ((**إن لربكم في أيامِ دهركم نفحاتٌ ألا فتعرضُوا لها**))[57]

والمقصود من هذه الحكايات أن يعمل كمال الجد في الطلب، حتى ينتهي إلى طلب ما لا يطلب. فإن الأوليات ليست مطلوبة، فإنّها حاضرة، والحاضر إذا طلب فقد واختفى، و من طلب ما لا يطلب، فلا يتهم بالتقصير في طلب ما يطلب.

لقد وصل الغزالي إلى برّ الأمان وأعاد بناء المعرفة من جديد، وتيقّن من أنّ المبادئ التي شكّ فيها وهي الأوّليات والحسيّات والعقليات ثابتة يقينية يصحّ الوثوق بها، لكن على خلاف النّظار فهو يعتقد أنّ الله هو الهادي وهو المرشد وهو الذي وفّق العبد للوثوق بها وجعلها أهلا لذلك، أما هي فلا تأثير لها، إنّما هي وسائل جعلها ربّها موصلة إلى الحق.

والحاصل: أنّ تجربته تبيّن للدارس ضرورة الاعتماد على مصادر العلم اليقينيّة، وأنّ ذلك لا يتمّ إلاّ بالتّخلّص من التّقليد، ومعرفة البيئة العلميّة معرفة دقيقة، مبنية على حضور ومعاينة، والسّعي الحثيث لامتلاك أدوات العلم والتّحكّم في آلياته، والأهمّ من هذا كلّه التّوجّه إلى الله الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى.

المطلب الثّاني: بيان قيمة العلوم العقلية ومقاصد أهلها

بعد تلك الرّحلة التي انطلق فيها من الشّك إلى اليقين، انتقل بخطوات منهجيّة إلى النّظر في علوم عصره المرتبطة بالمعرفة، ذلك أنّ الإنسان لا يمكنه الاعتماد على وسائل إدراكه ومواهبه، فهو في حاجة إلى التّعلّم، لذلك التفت بعدها إلى العلوم التي توقّع أن تخرجه من حيرته، فقال:"ولما شفاني الله من هذا المرض بفضله وسعة جوده انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق:

المتكلمون: وهم يدّعون أنهم أهل الرأي والنظر.

الباطنية: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

الفلاسفة: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.

الصوفية: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة.

فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شدَّ الحق عنهم، فلا يبقى في درك الحق مطمع، إذ لا مطمع في الرّجوع إلى التّقليد بعد مفارقته، ومن شرط المقلّد أن لا يعلم أنه مقلد، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده، وهو شعب لا يرأب وشعث لا يلم بالتلفيق والتأليف إلا أن يذاب بالنار، ويستأنف له صنعة أخرى مستجدة فابتدرت لسلوك هذه الطرق، واستقصاء ما عند هذه الفرق مبتدئاً بعلم الكلام، ومثنياً بطريق الفلسفة، ومثلثاً بتعلم الباطنية، ومربعاً بطريق الصوفية.[58] والعلوم العقليّة التّي تندرج تحت هذا المطلب: علم الكلام، والفلسفة.

أوّلا: علم الكلام مقصوده وحاصله

قال: ثم إني ابتدأت بعلم الكلام، فحصّلته وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علماً وافياً بمقصوده، غير وافٍ بمقصودي، وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة. فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة، فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها. فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب، يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة، على خلاف السنة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله.

ولقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه، فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة، والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة، ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم واضطرهم إلى تسليمها، إما التقليد أو إجماع الأمة، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار. وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات أصلا، فلم يكن الكلام في حقي كافيا، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافيا نعم، لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه وطالت المدة، تشوق المتكلمون إلى محاولة الذبّ عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور، وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها، ولكن لما لم

يكن ذلك مقصود علمهم، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى، فلم يحصل منه ما يمحق بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق، ولا أبعدُ أن يكون قد حصل ذلك لغيري! بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة، ولكن حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض الأمور التي ليست من الأوليات! ثمّ قال: والغرض حكاية حالي، لا الإنكار على من استشفى به فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء، وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به آخر.[59]

تعقيب: نلاحظ أنّه توجّه إلى علم الكلام لعلّه يجد فيه ضالّته، غير أنّه وجده علما وافيا بمقصوده، غير واف بمقصود الغزالي، ومقصود هذا العلم المرافعة عن العقائد الإيمانية، بينما مقصود الغزالي الرقي في مقامات الإيمان والخروج من الحيرة، فلم يجد فيه العلاج الشافي لمرضه، لأنّه علم جدلي، تتكوّن مادّته من شبهات المخالفين واعتراضاتهم، أما حاله فتختلف تماما عن مشكلات هذا العلم، ثمّ إنّه من أربابه، ومع ذلك تعرّض للحيرة، لذا ما وجد فيه علاجه، غير أنّه لم ينكر فائدته وفعاليته في علاج بعض المشكلات، وعليه فإنّ هناك من يستفيد به.

ثانيا: الفلسفة

قال ثم إني ابتدأت، بعد الفراغ من علم الكلام، بعلم الفلسفة وعلمت يقينا، أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائله، وإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقّاً.

ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك، ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم، حيث اشتغلوا بالرد عليهم، إلا كلمات معقّدة مبدّدة ظاهرة التناقض والفساد، لا يظن الاغترار بها بعاقل عامي، فضلاً عمّن يدعي دقائق العلوم، فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والإطلاع على كنهه رمى في عماية، فشمّرت عن ساق الجد، في تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التّصنيف والتّدريس في العلوم الشرعية، وأنا مبتلى بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفر من الطلبة ببغداد فأطلعني الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة، على منتهى علومهم في أقل من سنتين، ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة، أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره، حتى اطّلعت على ما فيه من خداع وتلبيس، وتحقيق وتخييل،

اطلاعا لم أشك فيه.[60] وبعد اطّلاعه على الفلسفة، انتقل لبيان أصناف الفلاسفة وأقسام علومهم.

أقسام علوم الفلاسفة

قال أعلم أن علومهم بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه ستة أقسام:رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية وسياسية وخلقية.

أما الرياضية: فتتعلّق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدّينية نفيا وإثباتا، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدته بعد فهمها ومعرفتها، وقد تولّدت منها آفتان:

إحداهما: أنّ من ينظر فيها يتعجّب من دقائقها ومن ظهور براهينها، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة ويحسب أن جميع علومهم في الوضوح، وفي وثاقة البرهان كهذا العلم، ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشّرع ما تناولته الألسن، فيكفّر بالتقليد المحض ويقول: لو كان الدين حقّا لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم! فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم استدلّ على أنّ الحقّ هو الجحد والإنكار للدّين وكم رأيت ممن يضل عن الحق بهذا العذر، ولا مستند له سواه! وإذا قيل له: الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقا في كل صناعة فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقا في الطب، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق، وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم في غيرها، فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني، وفي الإلهيات تخميني، لا يعرف ذلك إلا من جرّبه وخاض فيه فهذا إذا قرر على هذا الذي ألحَدَ بالتقليد، لم يقع منه موقع القبول بل تحمله غلبة الهوى والشهوة الباطلة وحب التكايس، على أن يصرّ على تحسين الظن بهم في العلوم كلها، فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين، ولكن لما كانت من مبادئ علومهم، سرى إليه شرهم وشؤمهم، فقل من يخوض فيها إلا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى.

الآفة الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدّين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم فأنكر جميع علومهم وادّعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع، فلمّا قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشك في برهانه، ولكن اعتقد أنّ الإسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع، فيزداد للفلسفة حبّا وللإسلام بغضا، ولقد عظم

على الدّين جناية من ظنّ أنّ الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرّض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية، وقوله صلى الله عليه وسلّم: ((**إن الشمس والقمر آيتان من آياتِ الله تعالى لا ينكسفان لموتِ أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله تعالى وإلى الصلاة**))[61] وليس في هذا ما يوجب إنكار علم الحساب المعرف بمسير الشمس والقمر واجتماعهما أو مقابلهما على وجه مخصوص.

وأما المنطقيات: فلا يتعلق شيء منها بالدين نفياً وإثباتا، بل هي النّظر في طرق الأدلة والمقاييس، وشروط مقدّمات البرهان وكيفية تركيبها، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه، وأن العلم إمّا تصور، وسبيل معرفته الحد وإمّا تصديق، وسبيل معرفته البرهان، وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلّة، وإنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات بزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات، ومثال كلامهم فيها قولهم: إذا ثبت أن كل (أ) (ب) لزم أن بعض (ب) (أ) أي إذا ثبت أن كل إنسان حيوان لزم أن بعض الحيوان إنسان، ويعبرون عن هذا بأنه الموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية، وأي تعلق لهذا بمهمات الدين حتى يجحد وينكر؟

فإذا أنكر لم يحصل من إنكاره عند أهل المنطق إلا سوء الاعتقاد في عقل المنكر، بل في دينه الذي يزعم أنه موقوف على مثل هذا الإنكار، ثمّ قال: نعم لهم نوع من الظلم في هذا العلم، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم أنها تورث اليقين لا محالة، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدّينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط، بل تساهلوا غاية التساهل، وربّما ينظر في المنطق أيضا من يستحسنه ويراه واضحا، فيظنّ أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيّد بمثل تلك البراهين، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية، فهذه الآفة أيضاً متطرقة إليه، ثم ذكر بعدها علم الطّبيعيات، والإلهيات وعلم السياسيات، والعلوم الخلقيّة، وبيّن ما فيها وما عليها.[62]

تعقيب: بعد مطالعته علم الكلام طالع كتب الفلاسفة حتّى وقف على منتهى علومهم، فوجدهم ينقسمون على كثرة فرقهم إلى ثلاثة أقسام، الدّهريون والطّبيعيون والإلهيون، كما توصّل إلى تقسيم علوم الفلاسفة إلى ثلاثة أقسام: منها ما يجب التّفكير فيه، ومنها ما يجب التّبديع به، و قسم لا يجب إنكاره أصلا، فالرّياضيات مثلا لا يمكن إنكارها ولكن قد يتولّد منها آفة، إذا ظنّ المتعلّم أنّ

جميع علوم الفلاسفة، هي في الوضوح وثاقة البرهان كالرّياضيات، مع أنّ كلام الفلاسفة في الرّياضيات برهاني وفي الإلهيات تخميني.

والمنطق لا علاقة له بالدّين حتّى يجحد وينكر، إلاّ أنّ أهل المنطق عند الانتهاء إلى المقاصد الدّينيّة لم يمكنهم الوفاء بشروط البرهان، وتساهلوا فيها غاية التّساهل، ذلك هو الفرق بين العلوم اليقينيّة.

والإلهيات كثرت فيها أغاليط الفلاسفة إلى درجة الكفر، بسبب قولهم الأجساد لا تحشر، وأنّ الله يعلم الكليّات دون الجزئيات، وأنّ الله قديم أزلي.

أمّا الطّبيعيات فقد ذكر أنّه ليس من شروط الدّين إنكارها، ولكن على الباحث في الطّبيعيات أن يعلم أنّ الطّبيعة مسخّرة من قبل الله تعالى، لا تعمل بنفسها بل هي مستعملة من جهة فاطرها.[63]

فالذي نستخلصه من تصنيفه: أنّ علوم الفلاسفة و المناطقة غير وافية بمقصده أيضا، وأنّ العقل لا يحيط بجميع المطالب ولا يكشف عن جميع المعضلات وأنّها في القضايا الدّينية لا تنفع، لأنّها لم تتأسّس على اليقين، وإنّما على مجرّد الافتراض والتّخمين.

المطلب الثّالث: بيان قيمة العلوم الروحيّة ومقاصد أهلها

ناقش الغزالي مذهب التّعليم، وهم الباطنيّة الذين يأخذون عن الإمام المعصوم، ثمّ تعرّض لعلوم الصّوفية.

أوّلا: مذهب التّعليم

بعدما فرغ من علم الفلاسفة توجّه إلى علم الباطنيّة، الذين يدّعون أنّ علومهم من الإمام المعصوم القائم بالحق فقال:" وكان قد نبغت نابغة التعليمية، وشاع بين الخلق تحدّثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق، فعنّ لي (ظهر لي) أن أبحث في مقالاتهم، لأطّلع على ما في كنانتهم (كتبهم) ثم اتفق أن ورد عليّ أمر جازم من حضرة الخلافة، بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم،فلم يسعني مدافعته وصار ذلك مستحثا من خارج، ضميمة للباعث من الباطن فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم، وكذلك قد بلغني بعض كلماتهم المستحدثة التي ولّدتها خواطر أهل العصر، لا على المنهاج المعهود من سلفهم، فجمعت تلك الكلمات ورتّبتها ترتيبا محكما مقارنا للتّحقيق، واستوفيت الجواب عنها، حتى أنكر بعض أهل الحق مني مبالغتي في تقرير حجّتهم فقال:" هذا سعي لهم، فأنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات، لولا تحقيقك لها، وترتيبك إياها" وهذا

الإنكار من وجه حق، فقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي تصنيفه في الرّد على المعتزلة فقال الحارث: الرد على البدعة فرض، فقال أحمد: نعم، ولكن حكيت شبهتهم أولا ثم أجبت عنها، فبمَ تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب، أو ينظر في الجواب ولا يفهم كنهه؟ وما ذكره أحمد بن حنبل حق، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر، فأما إذا انتشرت، فالجواب عنها واجب، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية، نعم، ينبغي أن لا يتكلّف لهم شبهة لم يتكلّفوها ولم أتكلّف أنا ذلك، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابي المختلفين إلي، بعد أن كان قد التحق بهم وانتحل مذهبهم وحكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنّفين في الرّد عليهم، بأنهم لم يفهموا بعد حجتهم، ثم ذكر تلك الحجة وحكاها عنهم، فلم أرض لنفسي أن يظن فيّ الغفلة عن أصل حجّتهم فلذلك أوردتها، ولا أن يظن بي أني وإن سمعتها لم أفهمها، فلذلك قررتها، والمقصود أنّي قرّرت شبهتهم إلى أقصى الإمكان، ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان.[64]

والحاصل: أنه لا حاصل عند هؤلاء، ولا طائل لكلامهم، ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل، لما انتهت تلك البدعة مع ضعفها إلى هذه الدرجة، ولكن شدّة التّعصّب، دعت الذّابين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم، وإلى مجاحدتهم في كل ما نطقوا به، فجاحدوهم في دعواهم: الحاجة إلى التعليم والمعلم، وفي دعواهم أنه: لا يصلح كل معلّم، بل لا بد من معلّم معصوم، وظهرت حجّتهم في إظهار الحاجة إلى التّعليم والمعلّم، وضعف قول المنكرين في مقابلته فاغترّ بذلك جماعة، وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه.[65]

مناقشة شبهاتهم: بعد بيان الدّاعي إلى الالتفات لعلومهم أخذ يعرض شبهتهم ويردّ عليها فقال: بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلّم، وأنّه لا بد وأن يكون معصوما، ولكن معلّمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلّم فإذا قالوا: هو ميت فنقول: ومعلّمكم غائب، فإذا قالوا: معلّمنا قد علّم الدّعاة وبثّهم في البلاد، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل، فنقول: ومعلّمنا قد علّم الدّعاة وبثّهم في البلاد وأكمل التّعليم إذ قال الله تعالى: ((**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**)) [المائدة 03] قال: وبعد كمال التّعليم لا يضرّ موت المعلّم كما لا تضرّ غيبته.

فبقي قولهم: كيف تحكمون فيما لم تسمعوه؟ أبالنص ولم تسمعوه، أم بالاجتهاد والرّأي وهو مظنة الخلاف؟ فنقول: نفعل ما فعله معاذ إذ بعثه رسول اللّه عليه الصّلاة والسّلام إلى اليمن: أن نحكم بالنّص، عند وجود النّص وبالاجتهاد عند عدمه، بل كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصي البلاد، إذ لا يمكنه أن يحكم بالنص، فإنّ النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية، ولا يمكنه الرّجوع في كل واقعة إلى بلدة الإمام وأن يقطع المسافة ويرجع فيكون المستفتي قد مات وفات الانتفاع بالرجوع.[66] ثمّ قال: وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم، بل المقصود أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشّفاء المنجي من ظلمات الآراء، بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام، طال ما جاريناهم، فصدّقناهم في الحاجة إلى التّعليم وإلى المعلّم المعصوم، وأنّه الذي عيّنوه، ثم سألناهم عن العلم الذي تعلموه من هذا المعصوم، وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها فضلا عن القيام بحلّها! فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب، وقالوا: أنّه لا بدّ من السفر إليه، والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم، وفي التبجح بالظفر به، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلا.[67]

تعقيب: الذي يلفت انتباهنا في هذا العرض أنّ الغزالي اقتحم مذهب الباطنيّة اقتحاما محكما، حيث عرض مذهبهم عرضا مرتّبا منظّما حتّى كأنّه منهم، ممّا جعل بعض أصدقائه يلومه على نشر مذهبهم فإنّهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات، لولا ترتيبه لها، لكنّه بيّن أنّ الردّ على البدعة فرض، لا سيما إذا انتشرت حيث يتأكّد الوجوب، ثمّ إنّه لا يمكن الجواب عنها إلا بعد عرضها.

وممّا دعاه أيضا إلى الرّد أنّهم كانوا يضحكون على من يردّ عليهم و يسخرون منهم بحجّة تفاهة ردّهم أو عدم فهم فكرتهم، فلم يرض الغزالي لنفسه أن يظنوا فيه الغفلة، ولقد وصل رحمه اللّه إلى نتيجة مفادها: أنه لا قيمة لآرائهم، ولفي الحقيقة لم يكن مقصوده بيان فساد مذهبهم، بل المقصود أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشّفاء المنجي من ظلمات الآراء، مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام، وعدم فهمهم للإشكالات التّي عرضها عليهم فضلا عن القيام بحلّها! فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب، وقالوا: أنّه لا بدّ من السفر إليه والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم وفي التبجح بالظفر به، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلا.

ثانيا: طرق الصّوفيّة

لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمّتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر عليّ من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرّقات المأثورة عن الجنيد والشّبلي وأبي يزيد البسطامي قدّس الله أرواحهم، وغيرهم من المشايخ، حتى اطّلعت على كنه مقاصدهم العلمية وحصّلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتّعلم والسّماع، فظهر لي أن أخصّ خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتّعلم، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات، وكم من الفرق بين أن تعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما، وبين أن تكون صحيحاً وشبعان؟ وبين أن تعرف حد السّكر، وأنّه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر، وبين أن تكون سكران! بل السكران لا يعرف حدّ السّكر وعِلمه وهو سكران، وما معه من علمه شيء! والصّاحي يعرف حدّ السُكر وأكانه ومَا معه من السكر شيء، والطبيب في حالة المرض يعرف حدّ الصحة وأسبابها وأدويتها، وهو فاقد الصحة، فكذلك فرقٌ بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه، وبين أن تكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا![68]

فعلمت يقينا أنّهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال، وأنّ ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصّلته، ولم يبقَ إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلّم، بل بالذوق والسلوك، وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها، والمسالك التي سلكتها في التّفتيش عن صنفي العلوم الشّرعية والعقلية إيمانٌ يقينيٌ بالله تعالى، وبالنبُوّة وباليوم الآخر، فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسي، لا بدليل معين محرّر، بل بأسباب وقرائن وتجارب، لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها، وكان قد ظهر عندي أنّه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النّفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله، قطعُ علاقة القلب عن الدّنيا بالتّجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكُنه الهمة على الله ، وأنّ ذلك لا يتمّ إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق.[69]

إلى أن يقول: فآثرت العزلة حرصاً على الخلوة، وتصفية القلب للذّكر... ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن

إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به، إني علمت يقينا أنّ الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأنّ سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطّرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشّرع من العلماء ليغيّروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدّلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا، فإنّ جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النّبوّة، وليس وراء نور النّبوّة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها وهي أول شروطها، تطهير القلب بالكليّة عما سوى الله تعالى ومفتاحها الجاري منها مجرى التّحريم من الصّلاة، استغراق القلب بالكلّيّة بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية في الله ؟

ثمّ يقول ومن جالسهم استفاد منهم هذا الإيمان، فهم القوم لا يشقى جليسهم، ومن لم يرزق صحبتهم فليعلم إمكان ذلك يقينا بشواهد البرهان على ما ذكرناه في كتاب عجائب القلب من كتب إحياء علوم الدين.[70]

تعقيب: يبدو أنّ الغزالي وجد ضالّته عند الصّوفية، فلمّا فرغ من العلوم التّي ذكرها، أقبل بهمّته على طريقهم وكأنّه رتّب ذلك ترتيبا مسبّقا، حيث كان يتوقّع أن يحطّ رحاله عندهم، لذلك جعلهم نهاية محطّته وعلى الرّغم من هذه المعرفة المسبّقة للقوم إلاّ أنّه لم يتخلّى عن منهجه القويم، الذي يتمثّل في إتيان البيوت من أبوابها، فلم يتّبع عاطفته المفعمة بحبّهم، إنما قيّدها بلجام العقل، فبدأ بمطالعة كتبهم وقراءة حكمهم، حتّى حصّل ما يمكن تحصيله بالعلم ثمّ انتقل إلى مجالستهم لأخذ ما يؤخذ بالذوق والحال، فاجتمع له لمعرفتهم المطالعة والمجالسة، وقد توصّل إلى إدراك سرّ سعادته، وذلك بالتقوى وكف النّفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله، قطعُ علاقة القلب عن الدّنيا بالتّجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكُنه الهمة على الله، وأنّ ذلك لا يتمّ إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق، وهذا هو عين التّصوّف.

فتبيّن له الطّريق الذي ينبغي سلوكه، والقوم الين يجب مجالستهم، حيث أعجب بهمّ أيّما إعجاب حيث قال: إني علمت يقينا أنّ الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأنّ سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطّرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشّرع من العلماء ليغيّروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدّلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا، فإنّ جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النّبوّة، وليس وراء نور النّبوّة على وجه الأرض نور يستضاء به.

الخاتمة

الذي نخلص إليه من خلال هذه الدّراسة أنّ الغزالي اعتمد على جهد ال في بلوغ المعرفة اعتمادا لا يقلّ عن اعتماده على الله لتصحّ العبادة، ولأنّه الضّامن لسلامة التّطبيق، وقد اعتمد في رحلته إلى اليقين على عمل منهجي بديع، فهو لم يتّجه إليه اتّجاها عشوائيا، إنّما كان واعيا بمراحل الطّريق ومشاقه، محدّدا غايته مستعدّا لتحمّل تبعاته.

وما يسترعي انتباهنا في حياته وهو يسعى لبلوغ الحقيقة، اهتمامه الكبير بمعرفة الواقع الذي يعيشه والظّروف المحيطة به، وهو بهذا يعلّمنا مراعاة الظّروف الاجتماعيّة والثّقافية، وعدم إغفالها أثناء البحث عن الحقيقة.

ولقد ولّد الفحص عن عقائد الفرق في نفسه شكّا فلسفيا وليس إيمانيا، لأنّه شكّ في ما يدّعيه أتباع المذاهب وكان أوّل الشّك عنده انحلال رابطة التّقليد، لأنّه لم يجد فيها علما يقينيا، ولا وسيلة للتّمييز بين الحق والباطل وهو القائل: الشكوك هي الوصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم يصبر، ومن لم يصبر وقع في العمى والضّلال، لذلك انطلق في بناء المعرفة العلمية من التّخلّص من الموروثات التّي تلقّاها، وإعادة البناء المعرفي من جديد، ولقد اختبر أهمّ العلوم المتعلّقة بانشغالاته وحنته، فلم يجدها تشفي علّته، وتزيل محنته، غير أنّه ضالّته عند الصّوفية، حيث توصّل إلى إدراك سرّ سعادته، فتبيّن له الطّريق الذي ينبغي سلوكه، والقوم الين يجب مجالستهم، حيث أعجب بهمّ أيّما إعجاب حيث قال: إني علمت يقينا أنّ الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأنّ سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطّرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشّرع من العلماء، ليغيّروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدّلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا، فإنّ جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النّبوّة، وليس وراء نور النّبوّة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وفي الأخير يمكن القول بأنّ أبا حامد الغزالي تمكّن بفكره الثّاقب، وتجربته الرّوحية من وضع يده على نقاط مفصليّة في مسألة المعرفة، فهي من الله وإليه، لقد علّمنا أن نكون مع الله في كلّ مراحل تحصيلها، انطلاقا من الاستعانة بالله والإخلاص له، والاهتمام بأمراض النّفوس وتزكيتها، والاجتهاد في تحصيل العلم ومذاكرته، والحرص على العمل ومداومته، ليصبح العبد ربّانيا يرى بنور الله، وينجو من كيد الشّياطين، فالمعرفة عنده ليست علما عقليا صرفا، وليست جهدا بشريا خالصا، وإنّما هي علم ومجاهدة، وجهد ومواهب.

الهوامش

1. سير أعلام النّبلاء: شمس الدّين الذّهبي 19/ 322. 323.
2. المرجع نفسه 19/ 335 .
3. سيرة الغزالي وأقوال المتقدّمين فيه: عبد الكريم العثمان، ص 11.
4. معجم مقاييس اللّغة: أحمد بن فارس 281/4.
5. الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: اسماعيل بن حمّاد الجوهري 1401/4.
6. القاموس المحيط: الفيروزبادي 198/3.
7. مفردات ألفاظ القرآن، الرّاغب الأصبهاني، ص 560.
8. روضة الطّالبين وعمدة السّالكين: أبو حامد الغزالي، ص 111.
9. المرجع نفسه، ص 111.
10. الرّسالة اللّدنيّة: أبو حامد الغزالي، ص 224.
11. المرجع نفسه 230.
12. كتاب التّمهيد: محمّد بن الطيّب الباقلاّني، ص 06.
13. التّعريفات: الشّريف الجرجاني، ص157.
14. انظر: نظريّة المعرفة بين القرآن والفلسفة: رابح عبد الحميد الكردي، ص49. 50.
15. المرجع نفسه 110/1. 111.
16. كما ذهب إلى ذلك **أوجوست كونت** (1798 - 1857 م) مؤسّس الفلسفة الوضعيّة.انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم، ص 354. 360. **وإيميل بوترو** (ت 1921 م) الذي قال: "إنّ المقصود بالعلم اليوم هو مجموعة المعارف الوضعيّة التّي حصّلها الإنسان " انظر: كتاب العلم والدّين في الفلسفة المعاصرة: إيميل بوترو، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، ص 09.
17. المرجع نفسه ص 346. 347.
18. **نظريّة المعرفة:** هي دراسة منهجيّة منظّمة لقضيّة العلم أو المعرفة، لدراسة ماهيتها، وإمكانها وطبيعتها وطرق الوصول إليها وبيان قيمتها، وهذا المصطلح عند اليونانيين يسمّى الابستومولوجيا épistémologie وهو مؤلّف من مقطعين épistémo ومعناه المعرفة و logos وتعني العلم، ومعنى المصطلح حرفيا علم المعرفة، وكان أوّل من وضع هذا المصطلح الفيلسوف الاسكتلندي جيمس فريدريك فريبيه (1808 ـ 1864) حين ألّف كتابه مبادئ الميتافيزيقا، إذ قسّم الفلسفة إلى قسمين: انطولوجيا أي علم الوجود (onto الوجود و logos العلم) وابستومولوجيا، أمّا المعنى المعاصر لهذا المصطلح في الفلسفة العربيّة والفرنسيّة فهو الدّراسة النّقديّة للمعرفة العلميّة، وهنا نلاحظ فرقا بين نظريّة المعرفة والابستومولوجيا فنظريّة المعرفة يغلب عليها الطّابع الوصفي التّحليلي بينما الابستومولوجيا

يغلب عليها الطّابع النّقدي، في حين المدرسة الانكليزيّة لا تفرّق بينهما.انظر: انظر: نظريّة المعرفة بين القرآن والفلسفة: رابح عبد الحميد الكردي، ص 63.

19 ـ معجم مقاييس اللّغة 4/109 ـ 110، لسان العرب:ابن منظور، ص 3083.

20 ـ القاموس المحيط 3/301.

21 ـ المعجم الوسيط 2/822.

22 ـ أبجد العلوم ـ الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم ـ القنّوجي 2/ 469. كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمّد علي التّهانوي 2/.1231

23 ـ الرّسالة اللّدنيّة: أبو حامد الغزالي، ص 223.

24 ـ المرجع نفسه، ص 230.

25 ـ المرجع نفسه، ص 224.

26 ـ انظر: الإيمان بالله وأثره في الحياة: عبد المجيد عمر النّجّار، ص 52 ـ 53. مناهج الأدلّة في عقائد الملّة، ص 155.

27. هذا الأثر ليس بحديث، قال الإمام السيوطي: وبعد فقد كثر السؤال عن معنى الحديث الذي اشتهر على الألسنة " من عرف نفسه فقد عرف ربه" وربما فهم منه معنى لا صحة له، وربما نسب إلى قوم أكابر، وفيه مقالات، المقال الأول: إن هذا الحديث ليس بصحيح ، وقد سئل النووي في فتاويه فقال: إنه ليس بثابت، وذكر ابن السمعاني: إنه من كلام يحيى بن معاذ الرّازي، ومعناه: من عرف نفسه بالضعف والافتقار إلى الله والعبودية له، عرف ربّه بالقوة والربوبية والكمال المطلق والصفات العلى.انظر: الحاوي للفتاوي: جلال الدّين السيّوطي2/288.

28 ـ كمياء السّعادة: ص 420.

29 ـ المرجع نفسه، ص420.

30 ـ المرجع نفسه، ص420.

31 ـ المرجع نفسه، ص 420.

32 ـ روضة الطّالبين وعمدة السّالكين، ص 141.

33 ـ إغاثة اللّهفان من مصائد الشّيطان، الباب الحادي عشر، ص 38.

34 ـ مرجع سابق، ص 113.

35 ـ روضة الطّالبين وعمدة السّالكين، ص 145 ـ 146.

36 ـ المرجع نفسه، ص 125.

37 ـ المرجع السّابق، ص 140.

38 ـ روضة الطّالبين وعمدة السّالكين، ص 148.

39 ـ المرجع نفسه، ص 230 ـ 231.
40 ـ المرجع نفسه، ص 232.
41 ـ المرجع نفسه، ص 233.
42 ـ هذا ليس حديثا إنّما أثر عن عيسى عليه السّلام كم نصّ على ذلك الإمام أحمد.
43 ـ روضة الطّالبين وعمدة السّالكين، ص 235.
44 ـ منهاج العارفين، ص 213.
45 ـ روضة الطّالبين وعمدة السّالكين، ص 125.
46 ـ المنقذ من الضّلال، ص 76.
47 ـ المرجع نفسه، ص 78 ـ 81.
48 ـ مقدّمة المنقذ من الضّلال : جميل صليبا و كامل عياد ، لمنقذ من الضّلال، ص 32.
49 ـ المنقذ من الضّلال، ص 81.
50 ـ أخرجه أبو داود عن أبي هريرة، كتاب السنّة، باب: شرح السنّة، رقم 5496.
51 ـ أخرجه مسلم عن أبي هريرة، كتاب القدر، باب معنى كلّ مولود يولد على الفطرة، رقم 2658.
52 ـ المنقذ من الضّلال، ص 81 ـ 82.
53 ـ **التقليد :** أخذ قول الغير بلا دليل. انظر: المستصفى علم الأصول:2/933.
54 ـ ميزان العمل، ص 409.
55 ـ المنقذ من الضّلال، ص 84.
56 ـ تفسير القرآن العظيم: ابن كثير 2/194.
57 ـ قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: رواه الترمذي الحكيم في النوادر، من حديث محمد بن مَسلَمة.
58 ـ المنقذ من الضّلال، ص 89.
59 ـ المرجع نفسه، ص 91 ـ 93.
60 ـ المرجع نفسه، ص 94 ـ 95.
61 ـ أخرجه البخاري عن أبي بكرة، كتاب الكسوف، باب: الصّلاة في كسوف الشّمس، رقم 1040.
62 ـ المنقذ من الضّلال: ص 100 ـ 116.
63 ـ المرجع نفسه، ص 109.
64 ـ المنقذ من الضّلال: ص 119.
65 ـ المنقذ من الضّلال: ص 100 ـ 116.

66. المرجع نفسه، ص 120. 121.
67. المرجع نفسه، ص 127.
68. المرجع نفسه، ص 123.
69. المنقذ من الضّلال: ص 130. 134.
70. المرجع نفسه، ص 142.